ذكرى ميلاد

تستعيد هذه الزاوية شخصية ثقافية عربية او عالمية بمناسبة ذكرى ميلادها، في محاولة لإضاءة جوانب أخرى من شخصيتها او من عوالمها الإبداعية. يصادف اليوم، الحادي والعشرون من أيلول/ سبتمبر، ذكرى ميلاد الفيلسوف الالماني ارتور شوبنهاور (1788-1860)

شوقي بن حسن

أرتور شوبنهاور ها هو الفيلسوف يستيقظ من حين إلى آخر

الإقصاء من صخب العالم

يرقد شوبنهاور في الـ«فرانكفورتر هوبت فريدهوف» (المقبرة الرئيسية لمدينة فرانكفورت). وكمعظم الفلاسفة، وبقية الأعلام من الموسيقيين والرسامين والأدباء والسياسيين، تُرجَّح أن يكون الوصول إلى ضريحه يسيراً. لكن الحال ليس كذلك مع شوبنهاور، ولك أن تتساءل وقتها: هل الأمر متعمّد؟ هل توجد رغبة - ربما لاواعية - بمحاولة إخفاء أثر فيلسوف كان يثير الرعب في النفوس البشرية؟ ألم يحدث معه الأمر ذاته حين يكتب تاريخ الفلسفة؟

لن تجد وأنت تبحث عن مكان القبر ما يدلّك من الإشارات، وستجد الكثير من القبور الفخمة، فتقول لا بد أن يكون شوبنهاور صاحب احدها ثم تقرأ اسماً آخر، وفي التعريف ستجد أن صاحب القبر كان مدير بنك أو صاحب شركة، وحتى إن سألت عمّال البلدية الذين كانوا يكنسون أوراق الخريف فإن اسم أرتور شوبنهاور لا يعني لهم شيئاً. ولم يبق بعد ذلك سوى اختراع منهجية هندسية لمسح المقبرة والعثور على ضريح صاحب «العالم كإرادة وتمثّل». أخيراً، ستقف أمام ضريح مسوّى بالأرض تقريباً، محفور فيه اسم الفيلسوف الألماني في الحجر، ولا بدّ من تدقيق النظر كي تقرأ: أرتور شوبنهاور مكتوبة بأسلوب قوطي، فتفرح بأنّ العراقيل المنصوبة حول الفيلسوف لم تحل دون أن تجد ضالتك. صحيح أن المكان يشبه حديقة صغيرة مسيّجة داخل المقبرة، ولكن لا شيء يدلّ على أن الرجل الذي تستقر رفاته تحت الحجر علم من أعلام الفكر.

أذكر أنني قرأتُ عن شوبنهاور بأنه كان يخشى أن تتحوّل أفكاره إلى دروس، لأنه كان يحدس أن مهمّة إلقائها ستكون على عاتق بعض الأكاديميين الذين جعلوا من المعرفة مجرّد وظيفة، وهؤلاء سيسيئون نقلها إلى عقول الشباب بالتأكيد. من هذا المنظور، لن يتألّم الفيلسوف لأن قليلين يأتون لزيارته، عكس فلاسفة آخرين من نفس عصره يحجّ الناس إلى أضرحتهم، مثل هيغل وماركس، ويلتقطون هناك الصور التذكارية. الأرجح أنه مرتاح لهذا الوضع، كما كان مرتاحاً لعقود من العزلة قضاها يكتب ويتأمل بعيداً عن صخب الحياة الثقافية والجامعية.

فضّل شوبنهاور السكينة والعزلة طوال حياته، إذن فإن ما يحدث حول قبره يبدو مثل تنفيذ وصيّة. بالتأكيد لن يستسيغ أن يجد اسمه اليوم ضمن الخريطة السياحية لمدينة فرانكفورت، كما هو الحال مع غوته. لقد سبق أن لفظ شوبنهاور حياة القصور الباذخة، ورفض المستقبل الذي أعدّه له والده كتاجر، ثمّ ترك النجومية المعرفية غير آسف. ما يهمّه هو الذهاب بأفكاره إلى مداها، وحين لاحقها وجد نفسه في مواجهة الحقائق الأليمة لسكنى العالم، وبدأ في تفريغ ذلك بمفردات الفلسفة.

شوبنهاور في بورتريه لـ كوبيستا بوهوميل، 1908 (Getty)

كان إحضار تلك «الحقائق» إلى الحياة اليومية للبشر نوعاً من الإزعاج. يرى شوبنهاور في أمجاد الحرب والعلم مجرّد ترتيب ديكوري للأشياء، لا يقوم على أي منطق. ويرى الحياة العامة معركة بين تماسيح وكلاب وسلاحف. ويرى في معظم القيم، من العدالة إلى الحب، أوهاماً مضلّلة. كيف يقبل الناس من يقول لهم إن الحياة تنوس بين المعاناة والملل، بالنسبة له، كانت المسألة بسيطة وواضحة: ما رغبنا في شيء إلا وعشنا معه ألم الحرمان، وما إن نلنّي رغبتنا حتى تزول الشرارة التي تحرّكنا فنقع في الملل. حتى لو كانت تلك هي الحقيقة بمعايير العقل والمنطق، فالناس في حاجة إلى وهم يلطف الواقع الذي يعيشونه، ولذا فإن صوت شوبنهاور غير مرحّب به.

أن يكون صوت الفيلسوف مقصياً من الحياة العامة فذلك أمر غير نادر، لكن شوبنهاور كان مقصياً أيضاً من الحياة الفكرية، تقريباً مطروداً من كل مكان. الثقي في ذلك قرار الجماعة وقراره الذاتي. كان يسخر علانية من فلاسفة عصره، ومنهم هيغل الذي حوّله إلى عدو شخصيّ، وكذلك فيشته وشيلنغ. لم يكن يعترف من المعاصرين إلا بالفيلسوف كانط، واعتبر بانه وريثه الوحيد، وهو ما جلب له عداء الكانطيين ودارت معهم معارك فكرية ضارية كانوا يتهمون فيها شوبنهاور باستعمال مفاهيم كانط في دلالات بعيدة عن مراد صاحب «نقد العقل المحض»، أما هو فكان يردّ عليهم بانهم يتخبّطون في سوء فهم مزمن، ليس لكانط وحده، بل للفلسفة في مجملها.

> على عكس فلاسفة آخرين، لم يصبح ضمن المزارات السياحية

> ما يبدو من نسيان لقبره وذكراه يبدو مثل تنفيذ وصيّة

قد يوحي هذا الإقصاء من الفضاء العمومي للثقافة في النصف الأول من القرن التاسع عشر بأن شوبنهاور قد خسر معاركه، لكن الخروج من تلك الحقبة الزمنية أظهر أنه أكثر المفكرين تأثيراً. بدأ الأمر مع فريدريك نيتشه وريشار فاغنر في ألمانيا، ثم ظهر الأثر الشوبنهاوري في دوائر أوسع؛ في أدب الروسيين فيودور دوستويوفسكي وليون تولستوي، والفرنسي إيميل زولا، والأرجنتيني خورخي لويس بورخس، وأقام فرويد وبرغسون نظرياتهم حول مفاهيم شوبنهاور؛ إذ وجدوا أن إمكانية قول شيء فكري جديد يمرّ عبر الخروج من تتبّع الجذر الرئيسي للفلسفة، وخارجه كان شوبنهاور ينتظرهم بمفاهيم الإرادة والفردانية والشعور بالآخر والحدس.

هكذا فشلت كل المحاولات من أجل إقصاء الأفكار المزعجة. باتت كوابيس شوبنهاور الفكرية هي العملة الثقافية الرائجة بعد رحيله، ومن ثمّ بدا كاحد آباء القرن العشرين. لقد كذّب شوبنهاور حين أشار إلى الوحشية العميقة التي تكمن في النفوس البشرية، وأرجع ذلك إلى حالة قصوى من «كره البشر»، لكنّ حروب أوروبا في الداخل والخارج كانت تؤكّد على أن الفيلسوف الألماني لم يكن ينطق عن الهوى، وكان أولى أن يُنظر إلى فكره بجدية أكبر فلا يختزل في «فلسفة للتشاؤم». لكأنها قبره الذي يحبّ كثيرون أن يضعوه فيه.

ربما علينا اليوم أن نتصالح مع تشاؤم شوبنهاور، فداخله توجد إشارات إلى حقائق تعمل البشرية على إنكارها، ولا ينفع في ذلك إقصاء مفكّر أو شاعر يجهر بما يرى. شوبنهاور المنسيُّ في تربة في فرانكفورت لا يزال ينهض من حين إلى آخر مذكّراً بما رأى. وما تزال الهواجس والمخاوف تعمل بكل طاقتها من حولنا، وبالتالي فهي تستدعيه رغم جهود تناسيه، وفي كل مرة ينتفض شوبنهاور ويزول عنه القبرُ والكفنُ.

طريقة دفن

في الثقافة العربية، حظي تلاميذ كثر لشوبنهاور - مثل نيتشه وسيوران - بما لم ينله الفيلسوف الالماني من عناية. لقد حوصر صاحب «فن ان تكون دائما على صواب» في كونه مفكرا متشائما، ولم يذهب الباحثون العرب في الغالب ابعد من ذلك، حتى ان الاشهر كتاب عربي عنه «شوبنهاور وفلسفة التشاؤم» لوفيف غريزي) يرسّخ هذا الارتباط، وهو ما يبدو اقرب لدفن افكاره في علبة واحدة. هكذا تدفن ثقافتنا الكثير من المفكرين.

إطلالة

عصر لاإنساني بات على الأبواب

الإيمان بالقيم الكبرى

ليست القيم ملابس تُبدَّل من فترة لأخرى. إنها، بمعنى ما، مكسب للبشرية ساهمت فيه الاديان والفلسفات والتقاليد والاخطاء والخبرات الإنسانية

فوّاز حداد

لم يخالج فولتير الشكّ في أنه «لا يوجد إلّا منهج أخلاقي واحد، مثلما لا يوجد إلّا علم هندسي واحد». كان هذا في زمن التنوير، الذي رفع رايةَ القيم العليا: الحقّ، الخير، الجمال، التي هيمنت على عصور متتالية، على الرغم من الطغيان المهيمن أيضاً، مع هذا كان في استمرارها على قيد الوجود انتصارٌ للعقل، كذلك الثورات لم تتقيّد بها ولا بما وعدت به، فسفك الدماء لم يأخذ بها، وإن استخلَتت برابتها. مع ظهور النازية والفاشية، وسيطرة الرأسمالية المتوحّشة، وتقاسمها العالم مع شيوعية الستار الحديدي والغولاغ، وما أثارته من نزاعات وتهديدات وصراعات في بلدان العالم الثالث، خلّفت كمّاً مروّعاً من الكوارث الإنسانية، أدّت إلى انحسار القيم الكبرى لعدم قدرتها على التصدّي، إن لم يكن الصمود، فالحروب العالمية، وانتشار الانقلابات، وجرائم السلطات التي تخطّت المجازر إلى الإبادة، ما تجاوز براءة عصر التنوير، إلى همجية سافرة، وضعت القيم في مأزق؛ ما الحقّ، ما دام لا حقوق للشعوب؟ أو ماذا بوسع الخير أو الجمال فعله إزاء أيديولوجيات أصبحت أديانًا تسوغ إعدام طبقات اجتماعية، أو أعراق، وحملة دين معين. والأخطر أنها باتت شموليات محضة بأيديولوجيات، تتسارع في الانتشار، قد تفتّ لكنها لا تموت ولا تتوارى، تداعت في القرن الحالي إلى دكتاتوريات رثّة، من فرط انحطاطها لا تحتاج إلى تغطية أيديولوجية، لا أكثر من شعارات من هراء، إلّا إذا اعتبرنا النهب والقتل والتعذيب أيديولوجية تصلح لعودتها المظفّرة إلى عالم تسيطر عليه القوة المطلقة.

انعكست مآسي القرن الماضي في الفكر والفن إلى انتشار عدمية، تبرّر كل شيء، نزعت القداسة عن قيم لم تعد مطلقة، وما تولّد عنها من ثوابت بقينية، ما دام مصدرها إنسانيًا بحتًا، وليس إلهيًا أو دينيًا، لم يتزعزع الإيمان بها فقط، بل وشكّكت بالعقل صانع معجزات التقدّم والحروب والاستعمار والرخاء.

لا مندوحة من الاعتراف بأنّ القيم مصدرها الإنسان، لكن يجب الاعتراف، بأنّ مصدر الخير والشر هو الإنسان أيضًا، وربما في النظر إلى القيم على أنها منارات في الظلام تضيء عالمًا موحشًا، بما ترسمه من مساحات يتلاقى على أديمها البشر، يقدّم لها سندًا أخلاقيًا متينًا، لا فراغًا، يزجها في عصر من اللامعنى، يبيح تدمير الذات والعالم. أصبح الاعتقاد بالقيم الكبرى يفتقر إلى حامل لها، وكأن الزمن عفّ عنها، ولا يؤهّلها لبناء عالم جديد، متحرّر من ماضي أمجاد الانتصارات والرذائل والمحن، ما ذهب بالبشر إلى توقّع عالم غامض من الاحتمالات، لا يبشّر بخلاص، قدر ما يوحي بمخاوف، أصبحت ببئية ونووية. صار يُخشى من وقوع العلم في قبضة الأوغاد، فالعلم لا يفكّر، الإنسان هو الذي يفكّر، والجشع الذي يستهدف اجتياح العالم، يمنعه عن التفكير، عندئذ لن نخطئ أنّ العصر اللاإنساني بات على الأبواب.

تفتّق القرن الجديد عن أفكار دعائية لديها جاذبية برّاقة، تحاكي ما تأتي به موضة التقلّبات، لا تعمّر أكثر من موسم، وربما شهر أو أيام، كما تقليعات الثياب، هذا إذا لاقت صدى، ولم تتكدّس في المستودعات. إن زجّ البشر في صرعات الأضواء، بدلًا من أمان واستقرار يتيحان للإبداع إمكانات ومجالات تساعد على تخليص العالم ممّا أهمله طويلًا: الفقر والجوع والمرض، وتقليص البون الشاسع المتضخّم بين الأغنياء والفقراء، فسوف يعاني البشر من فترات انتقالية، يراوح فيها بلا انتهاء، ليست دليلًا على الحيوية بقدر ما هي دليل على العجز.

> اصبح الاعتقاد بالقيم الكبرى يفتقر إلى حامل لها

ليست القيم ملابس تُبدَّل من فترة لأخرى، إنها، بمعنى ما، مكسب للبشرية ساهمت فيه الأديان والفلسفات والتقاليد والأخطاء والخبرات الإنسانية، إنها خزّان البشرية، لا تُعيق عن التقدّم بقدر ما تساعد عليه، وما الشوط الذي قطعته الإنسانية، إلّا مادة تتعلّم منه دروسًا، يُحافظ عليها كي لا تتكرّر.

هل الأجدى، التفكير في قيم على المدى القصير وقيم على المدى الطويل، ما يحيلنا إلى قيم ثابتة وقيم متطوّرة؟ ربما في الاعتراف بأن القيم يجب أن تأخذ بالاعتبار تبدل الزمان وتغير الظروف، مصدر إثراء لها. فمثلًا، بالعودة إلى الجمال، يمكن الحديث عن استخلاص مفاهيم عديدة، نابعة منه، أو تصب فيه، تماشي العصر، ولا تقصيه عنها، تتجاور من دون إلغاء، يغني أحدها الآخر، سلسلة متشابكة، تسمح بالتوالد وتعدّد النظر، فالجمال ليس واحدًا، ولا موحّدًا. مثلما يسمح الحق بالقانون وما يتولّد عنه، فما بالنا بالخير المضاد للشر بجميع أنواعه، هل ينبغي اقتصاره على شرور السحر، ولا يتعداها إلى الأسلحة النووية والكيماوية، والتهجير القسري، والإعدام...؟

في القول إن البشر بحاجة إلى تجديد الإيمان بالقيم الكبرى: الحق، الخير، الجمال، ما يقتضي التغاضي عنها، وعدم خسرانها بدعوى سذاجتها.

(روائي من سورية)

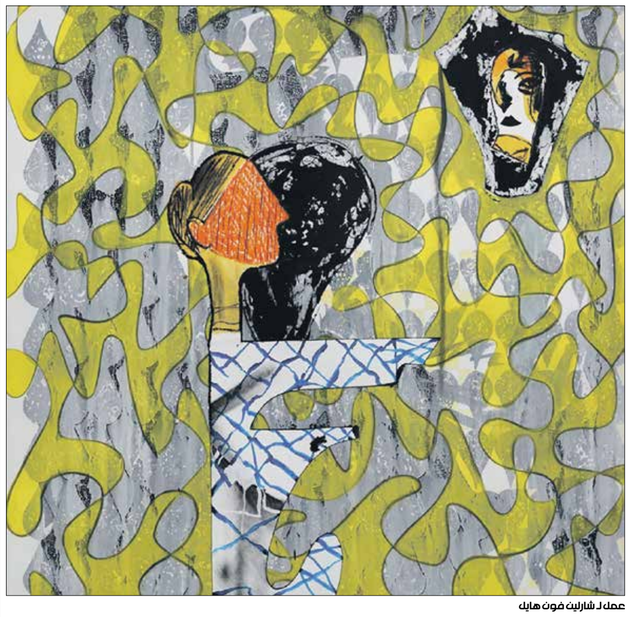

عمل لـ شارلين فوت هايك

قصائد

لا أحدَ يتحمّل هذه السكينة... يريدون خضوعاً مسموعاً

لم يبق من القلعة سوى غرفة الحراسة

حمزة عبود

العائدة

حينَ أفرغتِ الكؤوسُ الأوّل، كانتِ الأيدي تجتازُ ارتباكاتِها الصغيرة.
وكُنّا نُحاولُ كلاماً عن المُستقبل وخيانةِ الوقت.

كانَ الحديثُ يتجمّعُ من معابرِ ضيّقة. مِنْ قشرةِ لوزٍ ربّما. أو من اهتزازَةِ شُعاعٍ في عُنُقِ زجاجة.

لم تكُن مناسبةً سوى أنْ نُقيم هذه المأدُبةَ. وأنْ نتذكّرَ مآدبَ سابقة. لذا كنا نستعيدُ سهراتٍ أكثرَ زهواً أو نعودُ إلى أضغانٍ لا تزالُ تحتَ أضراسِنا.

وحدةُ الشّراب كانَ يعيدُ ترتيبَ خُططنا لتُدير احزانَنا بدرجاتٍ مناسبةٍ ولتنصَبَ أشراكنا لفراشةِ المائدة.

■■■

مقهى الوبمبي

الزّجاجُ الذي يَحْرُسُ كسَلَنا
شارَةُ المُرور
المُعطّلةُ منذُ سنوات.
خُدودُ الضّجر
في السّاعاتِ المتأخّرة.
تتّقدُ يومِنا
تحتَ عُيونِ المارّة.
كُسورُ أخطائِنا وندمِنا ...
لا أحدَ يتحمّلُ هذه السكينةَ.
يُريدونَ خُضوعاً مسموعاً!

■■■

مجازفة

أكتُبُ
نحوَ
...
ماذا؟

كأنّ أحداً لمْ يَرني.

■■■

مرساة

الإصغاءُ المُتواصلُ ومُراوحةُ النّظرِ واختفائي في الهواءِ المُجاورِ وضَحْكةُ السّرّ وكائناتُ الزّغبةِ وانْحنائي وصُعودي مرّاتٍ...
لا شيءَ يفرّقُ ضَجَري
مِرْساةَ المَقهى.

■■■

شرفة

منذُ أجيالٍ
ونحنُ نَجتازُ أيّامَنا القليلةَ هُنا
لمْ يبْقَ منَ القلعةِ سوى غُرفةِ الحراسة!

■■■

فجوة

هل وقعَ الشاعر في فجوةِ النون
بينَما السّاعات تمرُّ فوقَ رأسِه البطيء؟
هلْ يُحرق يديه
وهوَ يشيرُ إلى ضوءٍ في بئر؟
هل يُحصي عينيهِ على النافذة
وأصابعهُ على الوَرَق؟
هلْ يتسلّلُ إلى انتظاره
كحصانٍ في النّوم...
بينما السّفرُ يلفُّ شريطه الطّويل
وغيابك يجمعُ احتفالهُ على الأبواب؟
فراغٌ كموضعِ الجمر.

بطاقة

شاعر وصحافي لبناني من مواليد عام 1946 في عدلون بالجنوب اللبناني. أحد شعراء الجنوب في مطلع السبعينيات له في الشعر: «أبدأ من رقم يمشي»، و«الكلام أيضاً»، و«ظلال لسيرة التائه»، و«كأنني الآن»، و«حدث يحدث دائماً». وله في الرواية: «حكايات الشاعر بلوزار» و«هدوء حذر». متفرغ للكتابة ويقيم في صيدا جنوبي لبنان.

هانيبال سروجي، مواد مختلطة على قماش، 2006

فعاليات

بعد غدٍ الخميس، الثالث والعشرين من ايلول/ سبتمبر الجاري، تنظّم **مؤسّسة عبد الحميد شومان**، بدءاً من العاشرة صباحاً، فعالية بعنوان **ماراثون قراءة مكتبة شومان** في جبل عمّان. الهدف الرئيسي لهذه الفعالية، بحسب المنظّمين، هو «نشر فعل القراءة وتجميع المهتمّين بها في مكانٍ واحد».

يُختتم، مساء الجمعة المقبل، معرض **فنٌّ على حافة الهاوية** للتشكيلي الجزائري **طاهر بلّال**، والذي افتُتح في الرابع من الشهر الجاري في **غاليري باب الزوّار** بالجزائر العاصمة. يتساءل بلّال، في المعرض، عن جدوى الفنّ، من خلال قرابة ثلاثين لوحةً تجريدية يستخدم فيها بقايا الجلود على خلفيات سوداء تطعّمها بعض الألوان الاساسية؛ كالأحمر والأزرق والأصفر.

في إطار برنامج **حيّ القاهرة الدولي للفنون**، يحتضن رواق **عبد الخالق ثروت** في العاصمة المصرية المعرض الفني الجماعي **حيوية**، والذي انطلق في الخامس عشر من الشهر الجاري ويستمر حتى السابع والعشرين من تشرين الاول/ اكتوبر المقبل. من المشاركين في المعرض: رانا سمير، وروان الديب، ومروان صبرة.

حتى العاشر من تشرين الاول/ اكتوبر المقبل، يستمرّ في مدينة مونبلييه، جنوب فرنسا، المعرض الجماعي: **نشأة الكون: مجموعة افريقية**، الذي يحتضنه **متحف الفن المعاصر**. يقدّم المعرض اعمالا للعديد من الفنّانين الافارقة البارزين، مثل المصوّر **سايدو كايتا** (العمل)، والتشكيلي **شيري سامبا**.